الديموقراطية والتعليم

للدكتور امير بقطر

الباب الاول من محاضرة القيت في ردهة بورت التذكارية في جامعة القاهرة الاميركية . وينتظر ان تجمع مع اخواتها في كتاب يعالج الديمقراطية من نواحيها المختلفة

مبادىء التعليم الديموقراطية، كغيرها من المسائل التي تتعلق بالديموقراطية، كالسياسة ، والاجتماع والاقتصاد ، ونظام الحكم ، يَرْجعُ تاريخها الى الثورة العلمية ، وحرية التفكير ، والنهضة الصناعية ، والاصلاح الديني ، وغيرها من الحركات الفكرية النظرية والنهضات التجريبية العلمية ، التي تتصل منذ نشأتها باسماء مؤسسيها الابطال ، الذين أطلقوا الافكار من معاقلها ، وحرّروا الانسانية من آلامها

— ١ —

﴿ معناها ﴾ معنى الديموقراطية في التعليم ان تهيأ الفُرَص ، وتمهّد السُّبُل والوسائل ، لجميع ابناء الامة على السواء ، الفقير منهم والغنيّ ، الصغير والكبير ، الخادم والسيد ، الذكر والانثى ، القروي والمدنيّ . ولا نقصدُ بتهيئة الفرص ، وتمهيد السبل والوسائل ، ان تقدم للجميع تربية واحدة متجانسة نوعاً وكيةً . حاشا ، لاننا اذا فعلنا ذلك كان مثلنا مثل من يغسّلُ نوعاً واحداً من الثياب لالوف من الافراد ، زيًّا ، ولوناً ، وحجماً ، بغض النظر عن اعمار لابسيها ، وقاماتهم ، والوان بشرتهم ، واختلافهم ، متناً ونحافة ، ودمامةً ورشاقةً ، وميلاً وذوقاً ، ومناخاً وأقليماً . فمن ابناء الامة الواحدة من لا يصلح للدروس العالية ، ومن ابناء الامة الواحدة ، من لا ينبغي له هضم المواد التي تقدّم لطلبة المدارس الثانوية ، ومن ابناء الامة الواحدة ، من لا يستطيع الانتقال من السنة الثالثة الابتدائية ، ولو بقي فيها محروساً بعناية الدولة كلّ حياته . ومن ابناء الامة من يأتي نجمهُ في المواد الثقافية النظرية الكلاسيكية ، وتتألق شمسهُ وتسطع في الدروس الصناعية العملية . ومن ابناء الامة من يحذق امام الجبر والهندسة والحساب ، وينتصر في معارك التاريخ والاقتصاد والعلوم الاجتماعية . ومنهم من يحفق في هذه وتلك ولكنهُ ينبغ في الرسم او النحت والتمثيل او الغناء او الموسيقى

ومن أبناء الامة الواحدة من تتطلب تربيته الاكثار من الدروس الصحية ، والإلمام بمبادىء امراض معينة ، تتفشى في الاقليم الذي يعيش فيه . ومنهم من تتطلبُ تربيته العناية التامة بصناعة خاصة تمتاز بها مدنٌ خاصة ، كالمنسوجات القطنية في شبين الكوم واخميم والحريرية في دمياط والخزف

في قنا والخراطة وشغل الابنوس في اسيوط ؛ والسجاجيد في عدة مدن مصرية . وقد تتطلب تربيته التدرب على القتال والدفاع عن النفس من غزوات الانسان او الحيوان. كما يفعل البدو ورجال القبائل بأبنائهم ، وكما تفعل بعض بلدان اوربا واميركا اليوم كايطاليا والمانيا وبعض الولايات المتحدة . ومنهم من تتطلب تربيته لوناً من الوان الرياضة ، كالرماية وركوب الخيل والسباحة او ضرباً من ضروب اللهو والتسلية ، كما في اوربا واميركا فكثيراً ما يشمل المنهاج المدرسي الشطرنج والبردج والرقص وفي بعض الكليات لا يمنح الطالب درجة بكالوريوس ما لم يجز امتحاناً في العوم والغطس وانقاذ الغرقى . وقد تتطلب احياناً الالمام بالوقاية من الأمراض العامة كما في الهند حيث يموت بسببها سنويًّا عشرون الفاً من السكان ، ومن العقارب كما في مديريات اصوان وقنا وجرجا واسيوط ، ومن البلهارسيا والانكلستوما والرمد الحبيبي (٩٠٪ من سكان بعض الاقاليم المصرية مصاب بهذه الامراض) . وقد تتطلب التربية ان يلمّ الطالب بقيادة السيارات واصلاحها كما في اميركا حيث توجد سيارة لكل اربعة من السكان ، والوقاية منها كما في انكلترا حيث يموت قتلاً بالاتومبيل سنويًّا سبعة آلاف ، ويجرح ١٩٢ الف (حوادث السيارات على ارصفة لندن وحدها بمعدل ثلاث يوميًّا) ، والولايات المتحدة حيث يموت سنويًّا في حوادث السيارات ٣٠ الفاً ويجرح نحو ٧٠٠ الف ، وفي نيويورك وحدها نحو ١٥٠٠ نفس تموت سنويًّا بسبب السيارات

يتضح من هذا أن التربية الديمقراطية ، تؤمن بالفروق الفردية ، التي تكلم عنها علماء النفس ، وتعتقد أن الناس يولدون متساوين أمام القانون ، متساوين الى حدٍّ محدود في الحقوق والواجبات ، ولكنهم لا يولدون متساوين في الذكاء والعقول ، لا يولدون متساوين في القدرة على مزاولة الاعمال ، في الاستعدادات والكفايات . لذلك أمكننا أن نقول إن من أهم مبادىء الديموقراطية انها لا تفصل لكل فرد من أفراد الامة الثوب الذي يلائمه ، وتهيىء له من الطعام اللون الذي يشبه شهيته ، ويتفق ومزاجه ، ولا يسبب له التخمة أو عسر الهضم

﴿ الموضوعات التي تتناولها ﴾ الديمقراطية في التعليم لا تنحصر في السياسة العامة . بل تتناول الادارة والمنهاج ، وأساليب التدريس ، والنظام ، وتوزيع الميزانية على درجات التعليم على اختلاف أنواعها ، ونسبة الميزانية المخصصة للتعليم ، الى ميزانية الدولة العامة أولاً . ونسبتها للدخل القومي ثانياً . وسنتكلم بايجاز عن بعض هذه الموضوعات واحداً فواحداً : —

— ٢ —

﴿ المركزية في السياسة العامة ﴾ من أظهر المسائل التي تتعارض مع روح الديمقراطية ، وتعطيل سيرها هي المركزية ، خصوصاً الجامدة المتطرفة . ويقصد بالمركزية ، أن تخضع النظم المدرسية في مجموعها ، في طول البلاد وعرضها ، الى سلطة عليا واحدة . ولعل من أشد الانظمة المركزية مغالاة وتطرفاً في العالم ، هي مركزية التعليم في بلادنا المصرية فإن مدارسنا من ساحل البحر الأبيض

المتوسط شمالاً الى النوبا جنوباً ، ترجع في كل كبيرة وصغيرة في جميع شئون التعليم الى السلطة المركزية ، ومقرُّها وزارة المعارف العمومية في القاهرة . فلا يملك المفتش او الناظر او المعلم في اية مدرسة كانت ، ان يتصرف في اصغر المسائل شأناً ، فيما يختص بالمنهاج ، او طرق التأديب ، او الامتحانات ، او مواعيد الدراسة ، الا بعد مصادقة الديوان . ومما يؤسف له ان مراقب التعليم وهو المشرف العام على نوع التعليم الذي يقع في دائرة اختصاصه لا يتسنى له في كثير من الاحوال ان يخاطب مدارسهُ مباشرة او ان تخاطبه تلك المدارس رأساً بل لا مندوحة من أن تعرض الاوراق على سلطةٍ أعلى من المراقب . ومما يؤسف له ان سكان الاقليم لا يملكون حق المطالبة بنوع خاص من التعليم ، او منهاج خاص يلائم اقليمهم ويتفق وحاجاتهم . ومما يؤسف له ان هذا النوع من المركزية ، يؤدي في كثير من الاحايين الى ضياع الزمن في مكاتبات ومراسلات جافة رسمية في مسائل تافهة كان يستطيع الناظر البتَّ فيها من تلقاء ذاته وقد لا يصله من الديوان جواب شاف قبل ان تصبح المسألة من حوادث التاريخ القديم . ومن المعلوم ان المركزية في فرنسا ، التي قد نسجنا على منوالها ، ليست في هذه الدرجة من الشدة والبيروسة . فمن بواعث الاسف ان مصر كمعظم البلدان العربية قد اقتبست جسم هذا النظام وتركت روحه ففات عليها اهم ما في التربية الفرنسية واثمنهُ وأعزه ، وهو تهذيب النشء بتراث ما تركه السلف الصالح من الدراسة الثقافية وما يعمل على تقوية الناحيتين العقلية والنفسية باقتباس العلوم والوسائل الحديثة . وفرنسا مع مركزيتها تعنى كل العناية بالتفكير والمنطق ولا تدع المركزية تدفعها الى تنمية الذاكرة وحشو الاذهان بالمعلومات . بل بالعكس توجه همها الى تربية الذوق السليم والحكم الصادق والاعجاب بالجمال . ولا يقاس نجاح الطالب هناك بكمية المعارف والمعلومات التي يستوعبها بل بمقدرته على استعمال الآراء المجردة ورؤية العام في الخاص

ان من نتائج المركزية في مصر هو انحدارنا بالتعليم العام الى هوة سحيقة من الحفظ والاستذكار وعدم العناية بالجوهر والتفكير والتربية الحرة . وهذا ليس من الديمقراطية في شيء . حقيقة ان مصر وبلدان الشرق الادنى لا تستطيع الغاء نظام المركزية في التعليم الغاء باتّاً نظراً الى حداثة عهدها بالانظمة الديموقراطية . فليس من الحكمة تَرْك الحبل على الغارب واتباع نظرية laissez faire غير ان ما تحتاج اليهِ مزيج من السلطة المركزية والسلطة المحلية والاعتماد على بعض المدارس الخصوصية الراقية كما هي الحال في انكلترا . ان البلدان الشرقية لا تحتاج الى تلقي كل كبيرة وصغيرة في التعليم من سلطات عليا فان الحياة فيها مرتبطة بطبيعة الحال بمراجع لا عدد لها ومقيدة بسلطات من تقاليد وعادات اجتماعية ودينية واضاليل وخرافات وليس ثمت حاجة الى مزيدها

نقول اننا نحتاج الى عناية شديدة بالابتكار والاعتماد على الذات والاستقلال الفكري كما هي الحال في المدارس الانكليزية وغيرها ولكن انى لنا ان ننمي هذه الصفات ونغرس بذورها في جوّ مدرسيّ غير مشبع بالحرية ، ومقيد بسلسلة اوامر وسلطات ومراجع ؟ ان نظام التعليم في انكلترا يؤيد النظرية

التي نتكلم عنها الآن وهي انهُ من المستطاع ان تكون هناك سلطة مركزية للتعليم بغير ان تحتكر الحكومة المركزية امره وبغير ان تصبح المدارس ولظارها ومعلموها آلات صُمَّاء في يدها تهيمن عليهم وتقصُّ اجنحتهم فلا يستطيعون الى المعالي سبيلاً

كان من المحتمل ان تكون المركزية اخفَّ وطأة مما هي الآن ، وكان من المحتمل ان يعلّق الآمال على اصلاح عيوبها تدريجاً ، فيما لو كانت وزاراتُها التي تتقلَّص على السلطة بيدٍ من حديد ، ثابتة ، طويلة الاعمار . اما وهي عرضة للعواصف السياسية ، وزوابعها ، فأنها لا تعمر طويلاً ، ولا تكاد « تتبلور » سياستُها — اذا صحَّ هذا التعبير — حتى تهبَّ عليها ريح صرصر فتذوب . وقد قال لورد كرومر مرة في احد تقاريره عن حالة التعليم في مصر « انهُ بين سنة ١٨٦٣ و ١٨٩٢ تعاقب الوزراء على المعارف تباعاً حتى اصبح عددهم ٢٩ وزيراً » واردف ذلك بقوله « وقد جرت العادة ان يقلب كلُّ وزير سياسة سابقه رأساً على عقب ، ويبني على انقاضها سياسة اخرى تخالفُها ، حتى اذا ما قارب البناء التمام ، سقطت الوزارة ، فجاء الوزير الجديد بعمله وهدمه ، وهكذا دواليك »

يقولون ان المركزية ضمانٌ للتجانس القومي ، اي انهُ اذا تركت الهيئات المحلية ، والمدارس الاهلية ، تبثُّ نوع التعليم الذي تبغيه ، فان شطراً من ابناء الامة يولّون اتجاهاتهم الفكرية والثقافة نحو الشرق ، وآخر نحو الغرب وآخر نحو الشمال وآخر نحو الجنوب . وفي هذا من المغالطات مالا يخفى على الباحث . اولاً لان تنويع التعليم لا يُفرِّق بين ابناء الامة ، طالما ، كان في حدود الاصول المعقولة ، فانَّ التنويع في كل شيء سنة من السنن التي تجري عليها الطبيعة ، في عالمي الاحياء والجماد . وثانياً لأننا كما قلنا نستطيع ان نتقي التطرف والمغالاة في هذا التنويع ، بالجمع بين السياستين ، المركزية والمحلية

ومن هذا يتبين انَّ سلاح المركزية مسلول على رؤوس القائمين بالتعليم ، فلا يستطيعون حراكاً . وفي هذا اشدُّ ما يمكن من الافتيات على حرية التعليم التي هي ركن من اقوى اركان الديمقراطية

— ٣ —

﴿ المنهاج ﴾ نستطيع ان نتكلم طويلاً عن المناهج الدراسية ، وما ينبغي ان يتوافر فيها حتى يقال عنها حقًّا انها ديمقراطية ، بيد اننا نقصُرُ الكلام على شرطين اساسيَّين

الشرط الاول ، هو ان المناهج لا يمكن ان تكون ديمقراطية مالم تتسمْ مع العصر الذي هي فيه . لم يمض على العالم عصرٌ كعصرنا هذا ، تعدو فيه المخترعات والاكتشافات عدواً سريعاً ، فاذا لم تتعهد مناهج الدراسة بالتغيير والتعديل والحذف والزيادة والتبديل بغير انقطاع كان تفكير المدرسة في عالم[1] وتفكير الناس في عالم آخر . لانه ما معنى المناهج الدراسية ؟ المناهج الدراسية ما هي الاَّ وسيلة

(١) ويقول جون ديوي ان التجديد كالتوالد والتناسل لازم للحياة فكما ان التوالد والتناسل لابد منهما للحياة البيولوجية ، فان التجديد المستمر كذلك لابد منه لحياة الجماعات

فستطيع بواسطتها الالمام بالحضارة وتطوّرها ، ومظاهر الحياة ، المادية منها والروحية ، السياسية والاجتماعية . المناهج الدراسية لا يمكن ان يقال عنها ديمقراطية ، ما لم تتوصّل بها الى تفهم البيئة التي نعيش فيها ، ما لم تتوصل بها الى كسب الرزق ، ما لم تتوصّل بها الى بناء نظام الأسرة على اساس متين من الراحة والطمأنينة والصحة والخلق الكريم ، ما لم تتوصّل بها الى المحافظة على سلامة ابداننا وعقولنا ، ما لم تتوصل بها الى الانتفاع بالمدنية والحضارة الحديثة ، ما لم تتوصّل بها الى قضاء اوقات الفراغ في غير ما يضر بأجسامنا ويخلّ بميزان وجداننا ، ما لم تتوصل بها الى خدمة اوطاننا

انني لا ابتعد عن الصواب كثيراً اذا صرحتُ برأيي الخاص في ان المناهج المدرسية في بلادنا وفي كثير من البلدان الاخرى ، اقلّ ديمقراطية من الجرائد اليومية ، والمجلات الاسبوعية والشهرية ، ومن الراديو ، ومن دور التمثيل ، ومن دور الصور المتحركة ، مهما قيل في هذه كلها ، مهما وجه اليها من مهام النقد ومهما عددنا فيها من عيوب . وفي اعتقادي ان هذه الصحف والمجلات واذاعات الراديو ودور السينما والتمثيل ، اشدُّ اثراً من الناحية الديمقراطية من المدارس في حالتها الحاضرة . وأنها اقدر على تعليمنا مبادىء الحضارة الحديثة وشرح المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والاخلاقية ، كما يفهمها القرن العشرون ، وذلك لأنها تتمشى مع هذا العصر وتنشر الثقافة العامة من غير تردد او تحفظ . ونستطيع ان نضرب مثالاً بالاشرطة السينمائية المصرية الناطقة ، فانها على حداثة عهدها وما تحتاج اليه من وجوه الاصلاح ، أحدث من كثير من المعاهد العلمية التي انشئت منذ خمسين عاماً الى مائة عام او أكثر ، ولا تزال ادواتها وتحت جلوسها ومناهجها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه يوم انشائها

ونصيحتي للآباء ان يعوّدوا ابناءهم قراءة بعض الصحف والمجلات ، والكتب غير المدرسية ، وغشيان دور السينما ، وزيارة المعارض الفنّية ، لان المدارس على حالتها الراهنة لا تزال بعيدة عن الحياة الحقيقية ، وحاجات هذا الزمن

ولا يغرّنكم ما يهمس به البعض الآن من تبذل بعض الصحف والمجلات ، وتهتك بعض الروايات ، فان الحكيم يتخيّر الصالح منها ، كما يتخيّر لأبنائه الجيّد من الطعام ، والحشيم من الثياب ، وغم ان الاسواق والمخازن ملأى بالاطعمة الفاسدة ، والثياب الواهية الالوان ، المهتوكة الازياء ، التي يحمرُّ لها الجبين خجلاً

كثيراً ما نقرأ عن إخفاق التعليم الالزامي ، ونحي باللائمة على المدارس التي أنشئت من أجله ، ونزعم أن من شأنها ان تفسح مجالاً لهجرة سكان الأرياف الى المدن . سنرجىء الكلام عن التعليم الالزامي الآن ، ولكنا نريد أن نقول ان المنهاج الديموقراطي الذي يتمشى مع حاجات السكان ، لا يعمل على هذه الهجرة المزعومة . ما الذي يجب ان يشمله منهاج المدارس الالزامية ؟ أبسط المسائل في مبادىء جغرافية مصر ، والعالم المتصل بها — المبادىء الزراعية — معلومات أولية

صحية — شيء عن البيع والشراء واعداد الحاصلات للاسواق المحلية — مبادىء صناعة اولية تمكنه من اصلاح آلاته الزراعية وأدواته المنزلية — الوقاية من الامراض المحلية الفتاكة (هذا بشرط ان تقوم مصلحة الصحة العمومية ووزارة الاشغال وغيرهما من القيام بما عليها من اعداد أنابيب الماء، والاكثار من النماذج القروية، واقامة المستشفيات وغير ذلك) — شيء عن حقوق الفرد وواجباته — شيء عن الناس الذين يعيشون معهم، عن طبيعتهم الانسانية، عن هفواتهم وما هم عرضة له من الزلل والخطأ

يلاحظ انني لم اذكر شيئاً عن القراءة والكتابة والحساب، لأنني اريد أن تكون هذه الموضوعات وسيلة لا غاية. وهذه الغاية هي فهم الموضوعات الكثيرة التي عددناها الآن. ان المنهاج يفترض فيه أن يكون مشوّقاً، مرغباً؛ متصلاً بحاجات التلميذ، الى حدّ يجعله يقبل من تلقاء ذاته على تعلم القراءة والكتابة حتى يستعين بها على فهم هذه الموضوعات الجذّابة المتصلة بحياته

قال لي صديق انتدب لتفتيش المدارس الالزامية انهُ رأى التلاميذ وهم لا يكادون يعلمون شيئاً عن النظافة وطرد الذباب من عقد اجتماعاته فوق العيون. لان هؤلاء يدرسون بالتطويل مطولات الجغرافيا

ماذا يريد القروي من الحساب سوى القواعد الاربع البسيطة، مع الكسور البسيطة المعتادة كالـ ½ و ¼ و ¾ و ⅓ قراريط من ٢٤ وكفى

والشرط الثاني الذي ينبغي ان يتوافر في المنهاج حتى يكون ديموقراطيًّا هو مراعاة الفروق الفردية. قلنا ان الناس لم يخلقوا سواء في قواهم وكفاياتهم، ومراتب ذكائهم واذا كان الامر كذلك فليس من الحكمة في شيء ان نجرّعهم جميعاً شراباً واحداً، ومقادير منها متساوية. ففي المدارس الثانوية، ليس من الديموقراطية في شيء ان يدرس كل طالب من طلبة الكفاءة فوق اللغة العربية الانكليزية والفرنسية، والجبر والهندسة والحساب، والنبات والحيوان والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.. الخ من الطلبة من لا يستطيع القيام بهذه كلها دفعة واحدة. فمن الطلبة من يكفيه درس الحساب بدلا من الموضوعات الثلاثة في الرياضة، ويكفيه درس الطبيعة مع استغنائه عن الكيمياء

ومراعاة الفروق الفردية تؤدي بنا الى تخفيف المناهج للضعاف من الطلبة ضعفاً طبيعيًّا وتقويته للاقوياء منهم فوق طبيعته

مراعاة هذه الفروق تؤدي بنا الى انتقاء النابغين من تلاميذ القرى الذين تكلمنا عنهم وتعليمهم على حساب الدولة تعليماً عالياً وهذا لا يخيفنا بتاتاً فانها فئة قليلة لا تكاد تؤثر في الميزانية

وسأنقل ما اقترحهُ اخيراً مدير معارف العراق على حكومته فيما يتعلق بالتعليم في الارياف وستجدون في عباراته اشارة الى الشرطين اللذين تكلمنا عنهما، وهذه هي العبارة: —

« ينبغي أن يكون التعليم (في الارياف) ذا قيمة اقتصادية، متصلاً بحاجة الريف، متنوّعاً. فالبنت يجب ان يتناول تعليمها الانتاج في مواد الطعام على اختلاف انواعها. والصبيّ يجب ان

يتناول تعليمهُ المبادىء الزراعية الصناعية ، وان يشمل شيئاً عن زراعة الخضروات ، وتربية الحيوانات والطيور الداجنة ، وتحسين نتاجها . اما القراءة والكتابة والحساب ، وان كان لا مندوحة من ادراجها ضمن المناهج الدراسية ، الاَّ انهُ يرجى ان تكون « وسيلة » لغاية لا غير التي ان يكون الغرض منها الاستعانة بها على تفهم المبادىء الزراعية والصناعية المشار اليها لا لمجرد القراءة والكتابة وحل المسائل مجردة عن العلاقة بهذه المبادىء . اما البنات فيجب ان يشمل منهاجها التفصيل والخياطة ، والطهي وصناعة الزبدة والجبن ، وأن يكون ذلك بأبسط طريقة ممكنة »

يمكن ان نلخص هذه الناحية من الموضوع من قولنا ، ان المنهاج الديمقراطي يمهد لنا سبل الحضارة والعيش في ابسط صورها ، لا ان يكون وسيلة من وسائل الزينة والحلية الخارجية مع كراهية العمل ايَّا كان نوعه ، كما انه يعنى بالبقرية والنبوغ ، في الارياف والمدن على السواء ، ويفصل لكلٍّ الثوب الذي يلائمه

— ٤ —

﴿ طرق التعليم ﴾ من اهم اركان الديمقراطية في التعليم الطريقة التي يتخذها المعلم في تربية النشء . فاذا كانت الطريقة اوتوقراطية ، فان المعلم يكون الحاكم المستبد ، دكتاتوراً ، يملي ارادته على التلاميذ تملية ، يتقبل التلاميذ كلامه وحلوله وآراءه بغير مناقشة . يطبع لهم المذكرات او يؤلف الكتب ، وعليهم ثم ان يوافقوا على كل ما جاء بها ، وأن يجيبوا عن اسئلة الامتحان ، طبق ما قاله المعلم ، وطبق ما جاء في مذكراته او كتبه ، والويل لهم اذا ابدوا آراءهم الخاصة المبتكرة . والويل لهم اذا صارحوه القول انهم على رأي مؤلف آخر . واذا اردتم الايقان مما اقول فسلوا طلبة المدارس الثانوية والعالية . ان هذه الطريقة الاتوقراطية المستبدة ، تدرب الطفل ، كما يتدرب الحيوان ، وتروّض الطالب ، كما يروّض عمال « السرك » القردة وسائر الحيوانات

اما الطريقة الديمقراطية فتترك الطالب يبحث عن الحقيقة العلمية في جو فسيح من الحرية ، وتجعل التلميذ عاملاً ، لا عاطلاً ، فاعلاً لا مستقبلاً ، متكلماً لا مصغياً . اما المعلم فيكون كمدير المسرح في دور التمثيل ، يدير العمل وراء الستار ويشد الحبال اذا استدعت الحاجة ، ولكنه لا يظهر بتاتاً على المسرح امام الحاضرين . ولعلَّ ما قاله مرة امرسون في هذا الشأن ابلغ ما جاء به كاتب في الموضوع : « احترم الصغير فانهُ بشر مثلك وافسح له مجال التفكير ، والتعبير عن رأيه ، وتلمس الحقيقة بيده . واذا كنت والداً فلا تكن له والداً فوق ما يجب ان تكون ، واذا كنت معلماً فلا تكن له معلماً فوق ما يجب ان تكون »

﴿ المعلم والديمقراطية ﴾ قلنا ان الطالب في الديمقراطية ، ينبغي ان يحاط بسياج من الحرية غير ان هذا لا يتم طالما كان المعلم مقيداً بأوامر وقواعد وقوانين تفصيلية لا حد لها ، وطالما كم فه فلا يستطيع ان يناقش طلبته في كثير من الموضوعات العلمية او الاجتماعية او الاخلاقية ،

بدعوى انها تمس السلطات العليا ، او تقلب النظم الاجتماعية او تهدم العادات والتقاليد

اذا كان المعلم يحرَّم عليه مناقشة الطلبة في مادة التاريخ فيما يتعلق بنظم الحكام واستبداد الولاة خشية ان يعد هذا تطاولاً على سلطة او سلطات — واذا حرّم عليه في مادة التربية الوطنية او علم سياسة الدول بحث دستور وموازنته بدستور آخر خشية الاخلال بالنظام العام — واذا حرّم عليه ان يناقش طلبته في مادة الفيزيولوجيا او علم النفس في العاطفة الجنسية وما يتعرض له النشء من الاخطار في جهاده العنيف مع هذه العاطفة ، بدعوى ان هذا مفسد للاخلاق : — واذا حرم على المعلم في مادة الاخلاق ان يبحث في الانظمة القائمة في الزواج والطلاق ، بدعوى ان هذا خروج على التقاليد — واذا حرّم عليه ان يبحث في اضرار الفاشية او النازية او البلشفية ومزاياها ، عيوبها ومنافعها ، ما لها وما عليها بدعوى الخوف من القلق والانقلاب الاجتماعي — واذا حرم على المعلم في مادة البيولوجيا بحث نظرية داروين وارجاع الانسان الى اصله من ذوات الاربع أو أي حيوان آخر ، بدعوى ان هذا مخالف لهذا وذاك — اذا حرّم على المعلم ان يستعمل حكمته في تدريس المناهج المقررة ، نظراً لعدم مرونتها ، او ان يقوم فيه بأسلوب غير الاسلوب المألوف الذي تسير عليه المدارس ، ويقره المفتشون — اذا حرّم على المعلم كل هذا ، وقيد بهذه السلاسل والاغلال ، فكيف يتسنى لنا ان يمرح الطالب في جو من الحرية ، وأنى له ان يترك المدرسة وهو تواق للحرية يسير على مبادىء الديمقراطية ؟؟

في عهد السلطان عبد الحميد رأى مفتش احد معلمي الرياضة يكتب على السبورة امام طلبته هذه المعادلة الجبرية وهي ع ÷ خ = صفراً ، فأمر بالقاء القبض عليه وأودعه السجن بزعم ان تفسير ع + خ = صفراً ، هو عبد الحميد خان يساوي لا شيء

في اميركا تترك الحرية للمعلم في اتباع الطريقة التي يريد ، وله ان يختار من مواد المنهاج ما يراه ملائماً لمقتضيات الاحوال . ولست استطيع ان اقول ان المعلم الاميركي يبلغ من الحرية منتهاها غير انه في معظم الولايات يتمتع بحرية يحسدها عليه زملاؤه في كثير من انحاء العالم وقد جرت الديموقراطية بمعظم الولايات ان لم اقل كلها بالغاء كلمة مفتش inspector واستبدالها بكلمات اخرى منها كلمة « مساعد المعلم »

وربما يستغرب القارىء اذا علم ان المدرسة الاميركية في اصوان مثلاً لا يستطيع المعلم فيها ان يعلم التلاميذ نشيداً ، او يمثل التلاميذ رواية ، قبل ان يصادق عليها الديوان في القاهرة . ومن الغريب ان مفشوراً بهذا المعنى صدر في برلين سنة ١٩٢٦ وتبعه آخر بالمعنى ذاته في ابريل سنة ١٩٢٨

والديمقراطية في التعليم فوق هذه الحرية التي يجب منحها المعلم ، تؤدي بنا الى احترام المعلم مهما كانت درجة التعليم التي يشتغل بها ، سواء أكان في المدارس الاهلية أم الاميرية . يذكرني هذا بواقعتي حال . الاولى لا بد ان نذكرها وهي التي طلب فيها احد اعضاء مجلس النواب منذ

ثلاثة اعوام ان يكون مرتب المعلم في المدارس الاوامية لا يزيد عن جنيهين ، والواقعة الثانية هي ان احد الوزراء السابقين دعا نظار المدارس الاميرية والاهلية منذ سنوات قليلة مضت ، فاستدعى اولاً نظار المدارس الاميرية ، وما علينا انهُ نسي ان نظار المدارس الاهلية ضيوف كان واجب اللياقة يقضي ان يعطى لهم حق الاولوية . غير أن ما يعنينا من المسألة أن نظار المدارس الاهلية ما كادوا يجلسون في اماكنهم في حضرة الوزير حتى قابلهم بكل عنف وهددهم بأشياء لا أذكر تفاصيلها فيما اذا اشترك احد تلاميذهم في مظاهرات ، ثم امرهم بالخروج فخرجوا فهل في هذا من روح الديموقراطية وحرية المناقشة واحترام المعلم في شيء ؟

— ٥ —

﴿ المدرسة والامة ﴾ الديمقراطية في التعليم تعاون بين المدرسة ووحدة السكان الذين انشئت المدرسة لأجلهم فعلى هذه الوحدة كالقرية او الكفر او العزبة ان تشيد بناء المدرسة ، وتقوم بمعداتها ، وتتكفل بمرتب المعلم كله ، او تستعين ببعضه من وزارة المعارف ، وان يكون للمستنيرين من الافراد في هذه الوحدة رأي في ادارتها والاقتراح بشأن مناهجها ، والتفاخر بنجاحها . ومن جهة الطرف الآخر يجب على المدرسة ان تكون مركزاً لاجتماعات القرية العامة ، ومجمع النصائح الصحية والاخلاقية والادبية فيها ، وان تكون بعد انصراف التلاميذ مركزاً علمياً يجتمعون فيه لسماع الخطب والاناشيد والموسيقى ومشاهدة الصور الرمزية والخرائط بارشاد المعلم . وبذلك يشعر الاهلون ان على المدرسة لهم حقاً ويغارون على نجاحها ، وقد يستغنون عن مساعدة الحكومة لها[1]

تحتم الديموقراطية ان تكون المدرسة الثانوية مفتوحة الابواب لوالدي الطلبة واولياء امورهم وغرفة مدير الجامعة في اميركا مكتوب عليها ادخل بغير استئذان . اما في مصر فغرفة الادارة حصن حصين يحرسهُ الكاتب والباشكاتب ، والضابط والفراش . وقلما تستعمل الحجر الواسعة والقاعات الفسيحة لغير التدريس ، في حين ان من المستطاع استخدامها لالقاء المحاضرات واقامة حفلات السمر للحي الذي توجد المدرسة فيه

(١) في اميركا كليات زراعية تبث منشوراتها الفلاحين وتعينهم على نقل الحشرات الزراعية وانتقاء النوع وتحسين نسل المواشي وتتبع مزروعاتهم وتبث لهم بالنشرات . وكليات التربية المنزلية (home economics) تساعد الاسر في كل ما يتعلق بالمنزل من العناية بالاطفال والنظافة وترتيب الاثاث

وزرنا مرة مدرسة قروية واردنا ان نعلم مقدار الارتباط بين المدرسة وسكان القرية . فقادنا تلميذان الى عدة منازل لمشاهدتها ، والاطلاع على ما تقوم به المدرسة من الخدمات في المنازل كترتيب الاثاث والستائر والعناية بالمرضى . ودخلنا في احدى المنازل جلسنا جميعاً وكنا خمسين وجاءت ربة الدار وكانت مشغولة بغسل الملابس واخذت تحاضر فينا مستدلة على ما كان للمدرسة القروية من الاثر في منحها ومزروعاتها من تربية الدواجن وتحسين نسلها والعناية بطفلها وتحسين طرق الغذاء في الاسرة